الله .. محبّة

«أيها الأحباء : لنحب بعضنا بعضاً - لأن المحبة هي من الله . وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله. ومن لا يحب لم يعرف الله .. لأن الله محبة».

(رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤ : ٧ - ٩)

هنا نصافح رسول السلام ، في موكب السلام الذي نشره في العالمين ..

نشره في الدنيا التي كانت تمزّقها أهواء الأباطرة جرياً وراء المزيد من التوسّع والغلبة والنفوذ ! نشره في الدنيا التي كانت تمزّقها - في الدولة الواحدة - خلافات الحاكم مع المحكوم ، ويمزّقها - في صفوف الحاكمين أنفسهم - صراع الكبراء على السطوة والسلطان ، وتمزّقها - في صفوف المحكومين مع بعضهم بعضا - فوارق الطبقات وفوارق القوميات وفوارق الطوائف ، وتمزّقها - بين الحاكمين والمحكومين - من المظالم والفتن صنوف وألوان !!

حتى بني إسرائيل ، الذين جمعتهم الأنساب وجمعتهم النبّوات المتعاقبة المتلاحقة .. رفعوا بأيديهم سياط الفرقة والشقاق لأنفسهم وللناس ..

«وكان حاضراً في ذلك الوقت قوم يخبرونه عن الجليليين الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم ، فأجاب يسوع وقال لهم : أتظنّون أنّ هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كلّ الجليليين لأنّهم كابدوا مثل هذا ؟ كلا أقول لكم : بل إن لم تتوبوا فجميعكم تهلكون ! وأولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سِلْوام وقتلهم - أتظنّون أنّ هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين في أورشليم؟ كلا أقول لكم : بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون!! » (لو ١٣ : ١-٦) .

في ركام من الخطايا والذنوب ، والبلايا والمحن ، والدماء والأشلاء .. جاء المسيح .

«ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل ...

فلما جلس ، تقدّم إليه تلاميذه - ففتح فاه وعلّمهم قائلاً :

طوبى للمساكين بالروح ، لأنَّ لهم ملكوت السموات ! ... طوبى للحزانى ، لأنهم يتعزّون ! .. طوبى للودعاء ، لأنهم يرثون الأرض ! **طوبى للجياع والعطش إلى البر ، لأنهم يشبعون ! .. طوبى للرحماء ، لأنهم يُرحمون ! .. طوبى للأتقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله ! .. طوبى لصانعي السلام ، لأنهم أبناء الله يُدْعَوْن!.. طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأنّ لهم ملكوت السموات !** طوبى لكم إذا عيّروكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة - من أجلي - كاذبين ! افرحوا وتهلّلوا ، لأنّ أجركم عظيم في السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء من قبلكم !!

سمعتم أنه قيل : تحبّ قريبك وتبغض عدوك ، **وأما أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم - لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات ، فإنّه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين !!** لأنّه إن أحببتم الذين يحبونكم - فأيّ أجر لكم ؟ أليس العشّارون أيضاً يفعلون ذلك ؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط - فأيّ فضل تصنعون ؟ أليس العشّارون أيضاً يفعلون هكذا ؟ فكونوا أنتم كاملين - كما أنّ أباكم الذي في السموات هو كامل »، «**من ضربك على خدّك الأيمن فاعرض له الآخر أيضاً ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً ، وكلّ من سألك فأعطه ، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه ، وكما تريدون أن يفعل الناس بكم - افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا ... وإن أحببتم الذين يحبّونكم - فأيّ فضل لكم ؟ فإنّ الخطاة أيضاً يُحبّون الذين يحبونهم ... وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم - فأيّ فضل لكم ؟ فإنّ الخطاة أيضاً يفعلون هكذا .. وإن أقرضتم الذين ترجُون أن تشتروا منهم - فأيّ فضل لكم ؟ فإنّ الخطاة أيضاً يُقرضون الخطاة لكي يستردّوا منهم المثل .. بل أحبّوا أعداءكم ، وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم**

عظيماً ، وتكونوا بنى العلّي فإنَّه منعم على غير الشاكرين والأشرار !! فكونوا رحماء - كما أنّ أباكم أيضاً رحيم» (مت ٥ : ١-١٢ ، ٤٣-٤٨ ، لو ٦ : ٢٩-٣٦) .

دعوة الحب والرحمة .. دعوة الكرم والسماحة .. من رسول سمح رحيم .

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] !!.

لقد رأينا بني إسرائيل - في الإطار التاريخي الذي قدّمناه - وآفتهم التطاول والادّعاء والجمود عند المظاهر والشكول .

كانوا (حرفيين) (طقوسيين) ، يملؤهم الزهو بأنهم شعب الله المختار ! فأنّى لهذه القلوب أن تخالطها دعوة الحبّ الصافية الخالصة ، دعوة الرحمة الكريمة السامية ؟؟

كان مفهوم الدين عندهم أن يُقتل المخالفون لأدنى شبهة ، أن يَهلَك العابدون في تزمُّت المراسم وجمود التقاليد .. كانت صورة الإله في مخيلتهم - تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً - وحشاً شارياً لا يرضى بغير مزيد من الدماء ... وكان لابدّ أن يصحّح هذا الفهم المنكوس ، لتعرف السماحة طريقها لتلك القلوب .. القلوب المتشهية للقذف بالخطيئة واتهام السريرة والولوغ في الحرمات : ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء : ١٤٧] .

وبدأت كلمات المسيح تنساب كالغدير الصافي الرقراق : «ليس كلّ من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات ، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات ... كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم : يا ربّ يا ربّ ، أليس باسمك تنبّأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟؟ فحينئذ أصرّح لهم : إنّي لم أعرفكم قط ، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم » (مت ٧ : ٢١-٢٣ ، لو ٦ : ٤٦) !!

فليست العبرة بالدعاوى العريضة الرنّانة يوم الجزاء .. وليست مدائح الناس بالتي تغنى يوم يقوم الأشهاد ...

«احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدّام الناس لكي ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات ... فمتى صنعت صدقة فلا تُصوِّت قدّامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع وفي الأزقّة لكي يُمَجَّدُوا من الناس ، الحق أقول لكم : إنهم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك ، لكي تكون صدقتك في الخفاء ، فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية » (مت ٦ : ١-٤) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ ..... إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧١] .

والمسيح ينعى على الصلف والغرور في هجوم سافر مكشوف ...

«لا تدينوا لكي لا تُدانوا ، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون ، وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم . ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك ، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟ أم كيف تقول لأخيك : دعني أخرج القذى من عينك ، وها الخشبة في عينك ؟؟ يا مرائي ، أخرج أوّلاً الخشبة من عينك ، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك»!!

«وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه ، بينك وبينه وحدكما ... وإن سمع منك فقد ربحت أخاك ، وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحداً أو اثنين - لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة .. وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة ، وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشَّار .

... فالحق أقول لكم كلّ ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلّونه على الأرض يكون محلولاً في السماء ! وقول لكم أيضاً : إن اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذي في السموات ، لأنه حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون وسطهم » (مت ٧ : ١-٥ ، ١٨ : ١٥-٢٠ ، لو ٦ : ٣٧-٤٢) .

إنّ الله لا يكون في الهيكل وحده ، ولا يشهد الطقوس والمراسم وحسب :

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس : ٦١] ، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧] .

«حينئذ تقدّم إليه بطرس وقال : يا رب كم مرّة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له - هل إلى سبع مرات ؟ قال له يسوع : لا أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين مرة سبع مرات !! لذلك يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبيده ، فلما ابتدأ في المحاسبة قُدِّم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة ، وإذ لم يكن له ما يوفي - أمَرَ سيّده أن يباع هو وامرأته وأولاده وكل ما له ويوفي الدين . فخرَّ العبد وسجد له قائلاً : يا سيد تمهَّل فأوفيك الجميع ، فتحنّن سيد ذلك العبد وترك له الدين ..

ولما خرج ذلك العبد وجد واحداً من العبيد رفقائه مديوناً له بمائة دينار ، فأمسكه وأخذ بعنقه قائلاً : أوفني مالي عليك .. فدعاه حينئذ سيّده وقال له : أيها العبد الشرير ، كل ذلك الدين تركته لك لأنّك طلبت إليّ ، أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا ؟ وغضب سيده وسلّمه إلى المعذّبين حتى يوفي كل ما كان له عليه ... فهكذا أبى السموي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كلّ واحد لأخيه زلاّته » (مت ١٨ : ٢١-٣٥ ، لو ١٧ : ٣-٤) !

وليس للسماحة حدود ..

إنّ القلب السمح لا يتأتى له أن يحدد لنفسه حدود سماحته : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون : ٩٦] ، «صل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، وقل الحق ولو على نفسك» [١] .

ذلك أنّ السماحة إذا تشرَّبتها النفس فلن تتكلّفها بعد : «لأنّه ما من شجرة جيّدة تثمر ثمراً رديًّا ولا شجرة ردية تثمر ثمراً جيّداً ، لأن كلّ شجرة تُعرف من ثمرها ، فإنهم لا يجتنون من الشوك تيناً ولا يقطفون من العليق عنباً . الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح ، والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر ، فإنه من فضلة القلب يتكلّم فمه » (لو ٦ : ٤٣-٤٥) !

حقًّا : (إذا صلح القلب صلح الجسد كله) [٢] ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق : ٣٧] .

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

---

١ - الحديث صححه السيوطي.

٢ - الحديث في مفتاح كنوز السنة لفنسنك أنه مروي في البخاري ومسند الطيالسي.

ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

وامتحنت دعوة المحبة أول أمرها في المجتمع الصغير مجتمع التلاميذ ...

«حينئذ تقدّمت إليه أم ابني زبدى مع ابنيها، وسجدت وطلبت منه شيئاً، فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: قل أن يجلس ابناي هذان، واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوت.. فقال لهما: أما كأسي فتشربانها، وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان، وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أُعدَّ لهم من أبي..

فلما سمع العشرة اغتاظوا من أجل الأخوين!! فدعاهم يسوع وقال: أنتم تعلمون أنّ رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلّطون عليهم - فلا يكون هكذا فيكم... بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً - كما أنّ الإنسان لم يأت ليُخدم، بل ليخدِم وليبذل نفسه فدية عن كثير» (مت ٢٠: ٢٠-٢٨، مر ١٠: ٣٥-٤٥).

إنّ مقعد الصدق بجوار المسيح أغرى القوم بالتنافس ، فنسوا وصيّة المسيح بالتواضع : «وقال للمدعوين مثلاً - وهو يلاحظ كيف اختاروا المتكئات الأولى قائلاً له : متى دعيت من أحد إلى عرس فلا تتكئ في المتكأ الأول ولعلّ أكرم منك يكون قد دعى منه ، فيأتي الذي دعاك وإيّاه ويقول لك : أعط مكاناً لهذا ! فحينئذ تبتدئ بخجل تأخذ الموضع الأخير !! بل متى دعيت ، فاذهب واتّكئ في الموضع الأخير ، حتى إذا جاء الذي دعاك يقول لك : يا صديق ، ارتفع إلى فوق ! حينئذ يكون لك مجد أمام المتكئين معك ، لأنّ كلّ من يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » (لو ١٤ : ٧-١١) .

ولطالما أوصى المسيح بالتضحية والفداء ، ولكن العشرة لم يتناسوا ذواتهم إزاء ما أحرزه صاحباهم من سبق .. والاثنا عشر قد حرصوا جميعاً على تبيّن منازلهم في دار الجزاء : «فأجاب بطرس حينئذ وقال : ها نحن قد تركنا كل شيء و تبعناك فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم : أنتم الذين تبعتموني في التجديد ، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده - تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسيًّا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر . وكل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي - يأخذ مائة ضعف ، ويرث الحياة الأبدية ».

ويذكر في تفسير عبارة (أسباط إسرائيل الاثنى عشر) - أنها تعني الشعوب كافة : «لأنّ إسرائيل الله الحقيقي ما هو إلاّ الكنيسة ، التي تضم - إن لم يكن بالفعل ، فكحق - جميع شعوب الأرض قاطبة ». أما (عهد التجديد) فهو آخر الأيام ، حيث ستجدّد الطبيعة كلها ، على ما جاء في سفر الرؤيا (٢١ : ٥) : «ها أنا أجعل كل شيء جديداً ».

ولم يدعهم المسيح يتواكلون : «ولكن كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين »، «وكانت بينهم مشاجرة من منهم يظن أنّه يكون أكبر ؟ فقال لهم : ملوك الأمم يسودونهم ، والمتسلّطون عليهم يدعون محسنين ، وأما أنتم فليس هكذا ، بل

الكبير فيكم ليكن كالأصغر ، والمُتَقَدم كالخادم - لأن من هو أكبر : الذي يتكئ أم الذي يخدم ؟ أليس الذي يتكئ ؟ ولكني أنا بينكم كالذي يخدم . أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي ، وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً ، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي ، وتجلسوا على كراسيّ تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر » (مت ١٩ : ٢٧-٣٠ ، مر ١٠ : ٢٨-٣١ ، لو ١٨ : ٢٨-٣٠ ، ٢٤-٢٩)[1] .

ونحن نجد القرآن كذلك يَعِدُ المجاهدين والمهاجرين في سبيل الله خير الجزاء في الدنيا والآخرة : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١٠٠] ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة : ١٢١] .

فإذا انتقلنا من مجتمع التلاميذ إلى مجتمع اليهود ، رأينا من المفارقات عجبا .. لقد قدّمنا في (الإطار التاريخي) إجمالاً لطوائف بني إسرائيل ، يعطي صورة من هذا المجتمع المتشاحن المتناحر ، الذي لم يلمَّ شعثه نسب ولا دين ! .

وإنجيل يوحنا بالذات حافل بشواهد الأنانية الطائفية والقومية عند هؤلاء «... فيلبس وجد نثنائيل ، وقال له : وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء - يسوع بن يوسف الذي من الناصرة . فقال له نثنائيل : أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟؟ »، «فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماء ، فقال لها

---

١ - لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج٢ ص ٣٥.

يسوع : أعطيني لأشرب .. فقالت له المرأة السامرية : كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية - لأنّ اليهود لايعاملون السامريين !!! ... قالت له المرأة : يا سيد أرى أنك نبيّ ، آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون : إنّ في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه ! قال لها يسوع : يا امرأة صدّقيني أنّه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون ، أما نحن فنسجد لما نعلم ، لأنّ الخلاص هو من اليهود ، **ولكن تأتي ساعة - وهي الآن - حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق ، لأنّ الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له !!** الله روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا » (يو١ : ٤٥ ، ٤٦ ، ٣ : ٥-٢٦) !!

هذه هي الروحانية الغامرة والإنسانية الرفيعة ، التي أقبلت تنير سراديب الطائفية والشكلية .. «الروح هو الذي يحيي ، أما الجسد فلا يفيد شيئاً . الكلام الذي أُكَلِّمكُم به هو روح وحياة » (يو ٦ : ٦٢) !!

حقاً ما أكبر الفرق بين هذه الروح الخالصة وبين القوالب الجامدة : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

«وكان في الجموع مفاجأة كثيرة من نحوه : بعضهم يقولون : إنّه صالح ، وآخرون يقولون : لا بل يضلّ الشعب . ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهاراً لسبب الخوف من اليهود ... فتعجّب اليهود قائلين : كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلّم ، أجابهم يسوع وقال : تعليمي ليس لي ، بل للذي أرسلني . إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم : هل هو من الله أم أتكلّم أنا من نفسي ؟ من يتكلّم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم» (يو : ١٢-١٨) .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وظلّ اليهود يتغامزون ويتهامسون : «فقال اليهود فيما بينهم : إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده نحن ؟ ألعلّه مزمع أن يذهب إلى **شتات اليونانيين ويُعلم اليونانيين** »؟؟ .

«فتِّش وانظر ، إنه لم يقم نبي من الجليل » (يو ٧ : ٣٥ ، ٥٢) !

«فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به : إنكم إن ثبتم من كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذ ، وتعرفون الحق ، والحق يحرركم ... أجابوه : **إننا ذرية إبراهيم ولم نُستعبد لأحد قط** ، كيف تقول أنت أنكم تصيرون أحراراً ؟ أجابهم يسوع : الحقّ الحقّ أقول لكم : إنّ كل من يعمل الخطيّة هو عبد للخطيّة ... لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلّمكم بالحق الذي سمعه من الله ، هذا لم يعمله إبراهيم . أنتم تعملون أعمال أبيكم!! فقالوا له : إننا لم نولد من زنا ، لنا آب واحد هو الله . فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني ، لأنني خرجت من قِبَلِ الله وأتيت ، لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني .. أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ... فإن كنت أقول الحق ، فلماذا لستم تؤمنون بي ؟ الذي من الله يسمع كلام الله ، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله ... إن كنت أمجّد نفسي فليس مجدي شيئاً ، أبي هو الذي يمجّدني - الذي تقولون أنتم أنّه إلهكم - ولستم تعرفونه ، وأما أنا فأعرفه ، وإن قلت إني لست أعرفه أكون مثلكم كاذباً ، لكنّي أعرفه وأحفظ قوله . أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي فرأى وفرح ... فرفعوا حجارة ليرجموه » (يو ٨ : ٣٠-٥٩) !!!

لقد فزعت العقلية الضيّقة المغلوبة في الجدال ، المحجوجة بالبرهان - إلى الطوب والحصى ، تكمل به المناقشة !!

«فدعوا ثانية الإنسان الذي كان أعمى وقالوا له : أعط مجدًا لله ، نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ !

فأجاب ذاك وقال : أخاطئ هو ؟ لست أعلم ، إنما أعلم شيئاً واحداً ، أني كنت أعمى والآن أبصر !! ... ألعلّكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ ، فشتموه وقالوا: **أنت تلميذ ذاك ، وأما نحن فإننا تلاميذ موسى . نحن نعلم أنّ موسى كَلّمَهُ الله ، وأما هذا فلا نعلم من أين هو** ؟؟ فأجاب الرجل وقال لهم : إنّ في هذا عجباً . إنكم لستم تعلمون من أين هو وقد فتح عينيّ ، ونعلم أنّ الله لايسمع للخطاة ، ولكن إن كان أحد يتقي الله ويفعل مشيئته فلهذا يسمع ! منذ الدهر لم يُسمعْ أنّ أحداً أفتح عيني مولود أعمى !! لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً . أجابوا وقالوا له : في الخطايا ولدت أنت بجملتك ، **وأنت تُعلّمُنا !! فأخرجوه خارجاً** » (يو ٩ : ٢٤-٣٤) !

أخرجوه خارجاً ... هكذا حلّوا الإشكال ، ودسُّوا رءوسهم في الرمال !!

إنهم تلاميذ موسى وكفى ، وهم الأحبار والكهّان الذين لا يتلقّون علماً من سواد الناس ! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ..... أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ..... أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ..... إِنَّ ٱلَّذِينَ

يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ..... يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٢﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٣﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ..... فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء : ٤٤ - ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ - ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠] .

«فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً ، وقالوا : ماذا نصنع ؟ فإنّ هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة ! إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به ، فيأتي **الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا**» (يو ١١ : ٤٧-٤٨) !! «وكان أناس **يونانيون** من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد ، فتقدّم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل ، وسألوه قائلين : يا سيّد ، نريد أن نرى يسوع . فأتى فيلبس وقال لأندراوس ، ثم قال أندراوس وفيلبس ليسوع ، وأما يسوع فأجابهما قائلاً . قد أتت الساعة ليتمجّد ابن الإنسان . الحق الحق أقول لكم : إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت ، فهي تبقى وحدها ! ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير ! من يحب نفسه يهلكها ، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية » (يو ١٢ : ٢٠-٢٥) ...

إنّ بني إسرائيل يشفقون على ذهاب سلطانهم ... يشفقون من دعوة المحبة المسيحية أن تهدم العصبية ، وتأخذ طريقها إلى اليونان والرومان ، وإلى غير اليونان والرومان .. ولكن هل يستطيع القوم بعنادهم وجمودهم وضيق أفقهم أن يعترضوا مجرى التاريخ ؟؟ «لذلك أقول لكم : **إنّ ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطي لأمة تعمل أثماره**» (مت ٢١ : ٤٤) !!

«ماذا تظنّون ؟ كان لإنسان ابنان : فجاء إلى الأول وقال : يا ابني اذهب اليوم أعمل في كرمي . فأجاب وقال : ما أريد ، ولكنه ندم أخيراً ومضى . وجاء إلى الثاني وقال كذلك ، فأجاب وقال : ها أنا يا سيّد ولم يمض . فأيّ الاثنين عمل إرادة الأب؟ قالوا له : الأول . قال لهم يسوع : الحق أقول لكم : إنّ العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله ، لأنّ يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به ، وأما العشّارون والزواني فآمنوا به ، وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيراً لتؤمنوا به !

اسمعوا مثلاً آخر : كان إنسان رب بيت غرس كرماً : أحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلّمه إلى كرّامين وسافر ، ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرّامون عبيده ، وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً . ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأوّلين ، ففعلوا بهم كذلك . فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً : يهابون ابني . وأما الكرّامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوراث : هلّم نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين؟؟ قالوا له : أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا ردّيا ، ويسلّم الكرم إلى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها !! قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب : الحجر الذي رفضه البنّاءون هو قد صار رأس الزاوية – من قبل الرّب كان هذا ، وهو عجيب في أعيننا .. ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنّه تكلّم عليهم ، وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه

خافوا من الجموع - لأنه كان عندهم مثل نبي » (مت ٢١ : ٢٨-٤٦ ، مر ١٢ : ١-١٢ ، لو ٢٠ : ٩-١٩) !!

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة : ٦ - ٨] .

هكذا تلقّى مجتمع التلاميذ ، ومجتمع اليهود دعوة المحبة المسيحية ...

أما مجتمع التلاميذ فسار على الدرب ، ولئن تعثّر خطوات فقد عوّضها وتقدّم أشواطاً ، وكل بني آدم خطّاءون وخير الخطّائين التّوابون ..

أوصاهم المسيح وحدّد لهم مهمتهم : «هؤلاء الاثنا عشر - أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : إلى طريق أمم لا تمضوا .. وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا .. بل اذهبوا بالحرّى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ! وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : إنه قد اقترب ملكوت السموات ! اشفوا مرضى ، طهّروا برصاً ، أخرجوا شياطين ! مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا! لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصاً ، لأنّ الفاعل مستحق طعامه . وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا : من فيها مستحق ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا . وحين تدخلون البيت سلّموا عليه ، فإن كان البيت مستحقًّا فليأت سلامكم عليه ، ولكن إن لم يكن مستحقًّا فليرجع سلامكم إليكم . ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم . الحق أقول لكم : ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة » ، «فخرجوا وصاروا يكرزون أن يتوبوا ، وأخرجوا شياطين كثيرة ، ودهنوا بزيت مرضى كثيرين - فشفوهم » (مت ١٠ : ١١-١٥ ، مر ٦ : ٧-١٢ ، لو ٩ : ١-٦) .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ [النور: ٢٧ - ٢٩]، ﴿... فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

وتجاوزت الرسالة بعد ذلك حدود بني إسرائيل، وانطلق رسل المسيحية في أنحاء العالم الروماني يبشّرون برسالة المحبة ... «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم» (يو ١٤: ٢٧).

وكانت لهم كلمات رائعة يؤسسون بها صرح المحبة في مختلف أرجاء الأرض..

كانت وصية المسيح منقوشة على صفحات قلوبهم: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذي يثبت فيّ وأنا فيه، هذا يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً. إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن - فيجف ويطرحونه في النار فيحترق. إن ثبتّم فيّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم، بهذا يتمجّد أبي - أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي. كما أحبّني الآب كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي. إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت فيّ محبته. كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم، ويكمل فرحكم.

هذه هي وصيتي: أن تحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم. ليس لأحد حبّ أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبّائه. أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به.

لا أعود أسميكم عبيداً ، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيّده ، لكني قد سميتكم أحبّاء لأنيّ أَعْلَمْتُكُم بكل ما سمعته من أبي . ليس أنتم اخترتموني ، بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم ، لكي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي - بهذا أوصيكم ، حتى تُحبُّوا بعضكم بعضاً » (يو ١٥ : ٥-١٧) .

فتغنّى التلاميذ على قيثارة الحب ، بألحان من وحي معلّمهم : «فالذين تشتّتوا ، جالوا مبشرين بالكلمة » (أعمال ٨ : ٤) ...

كتب بولس في رسالته إلى أهل رومية : «فإنّه كما في جسد واحد لنا أعضاء كثيرة ولكن ليس جميع الأعضاء لها عمل واحد ، هكذا نحن الكثيرين - جسد واحد في المسيح وأعضاء بعضاً لبعض كلّ واحد للآخر ، ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا ... المحبّة فلتكن بلا رياء ، كونوا كارهين الشر ، ملتصقين بالخير ، وادّين بعضكم بعضاً بالمحبّة الأخوية ، مقدّمين بعضكم بعضاً في الكرامة .. عاكفين على إضافة الغرباء . باركوا الذين يضطّهدونكم . باركوا ولا تلعنوا .. لا تُجازوا أحداً عن شرّ بشر ... إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس . لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحبّاء ، بل أعطوا مكاناً للغضب ، لأنّه مكتوب لي النقمة أنا أجازي - يقول الرب . فإن جاع عدوّك فأطعمه ، وإن عطش فاسقة . لأنّك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه . لا يغلبّنك الشر بل اغلب الشر بالخير » (رومية ١٢ : ٤-٦ ، ٩-١٠ ، ١٣-١٤ ، ١٧-٢١) .

وفي رسالة بطرس الرسول الأولى : «... أي مجد هو إن كنتم تُلْطَمُون مخطئين فتصبرون ؟ بل إن كنتم تتألمون عالمين الخير فتصبرون - فهذا فضل من عند الله ، لأنكم لهذا دُعيتم . فإنّ المسيح أيضاً تألّم لأجلنا ، تاركاً لنا مثالاً لكي تتّبعوا خطواته ، الذي لم يفعل خطيّة ولا وُجد في فمه مكر ، الذي إذا شُتِمَ لم يكن يشتم عوضاً ، وإذا تألّم لم يكن يهدّد ، بل كان يُسلِّم لمن يقضي بعدل » (ابطرس ٢٠-٢٣) .

وضمّن يوحنا رسالته الأولى هذه الفقرات الغالية : «نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة ، لأننا نحبّ الإخوة . من لا يحبّ أخاً يبقى في الموت . **كلّ من يبغض أخاه فهو قاتل نفس** ، وأنتم تعلمون أنّ كلّ قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه . بهذا قد عرفنا المحبة أنّ ذاك وضع نفسه لأجلنا ، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة ، وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه ! يا أولادي لا نحبّ بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق ... أيها الأحبّاء لنحبّ بعضنا بعضاً ، لأنّ المحبة هي من الله ، وكل من يحبّ فقد وُلِدَ من الله ويعرف الله ، ومن لايحبّ لم يعرف الله - لأنّ الله محبة . بهذا أُظهرت فينا أنّ الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به .. أيها الأحبّاء إن كان الله قد أحبّنا هكذا ، ينبغي لنا أيضاً أن يحبّ بعضنا بعضاً ... إن أحب بعضنا بعضاً ، فالله يثبت فينا ومحبّته قد تكملت فينا ... بهذا تكمّلت المحبة فينا ، أن يكون لنا ثقة في يوم الدين ... لا خوف في المحبة ، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج !! ... نحن نحبّه ، لأنه هو أحبّنا أوّلاً . إن قال أحد إني أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب ، لأنّ من لا يحب أخاه الذي أبصره ، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره ؟؟ » (١ يوحنا : ٣ : ١٤-١٨ ، ٤ : ٧-٢١) .

وجاء في رسالة يعقوب : «من أين الحروب والخصومات بينكم ؟ أليست من هنا - من لذّاتكم المحاربة في أعضائكم؟ ... لا يذمّ بعضكم بعضا أيها الإخوة ، الذي يذمّ أخاه ويدين أخاه يذمّ الناموس ويدين الناموس ... واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلّص ويهلك ، فمن أنت يا من تدين غيرك ؟ ... أيها الإخوة ، إن ضلّ أحد بينكم عن الحق فردّه أحد ، فعليكم أنّ من ردّ خاطئاً فعن خلال طريقه يُخلّص نفساً من الموت ، ويستر كثرة من الخطايا » (يعقوب ٤ : ١-٢ ، ١١-١٢ ، ٥ : ١٩-٢٠) .

هذه هي الرسالة الإنسانية التي ضاقت عنها بني إسرائيل ، فانطلقت لتنير للعالم كله السبيل ...

إنّ بطرس يعتز بنزعته الإنسانية العالمية ، فيقول لقائد المائة (كرنيليوس) من الكتيبة الإيطالية من قيصرية : «أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي ، أو يأتي إليه ! وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما إنّه دنس أو نجس! » (أعمال ١٠ : ٢٨) .

وحاول الحرفيون الطقوسيون أن يناضلوا عن كيانهم بالشغب والتشويش ! كذلك فعلوا مع بولس ، عند عودته إلى أورشليم بعد رحلته التبشيرية في أوربا : «... رآه اليهود الذين من آسيا في الهيكل ، فأهاجوا كلّ الجمع وألقوا عليه الأيادي - صارخين : أيها الرجال الإسرائيليون أعينوا ، هذا هو الرجل الذي يعلّم الجميع في كلّ مكان ضدًّا للشعب والناموس وهذا الموضع ، **حتى أدخل يونانيين إلى الهيكل ودنّس هذا الموضع المقدّس** ، لأنّهم كانوا قد رأوا معه في المدينة تروفيمس الإفسسي فكانوا يظنّون أن بولس أدخله إلى الهيكل . فهاجت المدينة كلها ، وتراكض الشعب وأمسكوا بولس وجرُّوه خارج الهيكل... » (٢١ : ٢٧-٣٠) .

لكنّ اتجاه الريح سار على غير هوى أولئك اليهود : «وكانت كلمة الله تنمو وعدد التلاميذ يتكاثر جدًّا في أورشليم ، وجمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان» ، «وأما الكنائس في جميع اليهودية والجليل والسامرة فكان لها سلام ، وكانت تبنى وتسير في خوف الرب ، وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر » ، «فسمع الرسل والإخوة الذين كانوا في اليهودية أنّ الأمم أيضاً قبلوا كلمة الله» ، «وكان - بولس - يحاجّ في المجمع كل سبت ويقنع يهوداً ويونانيين» (أعمال ٦ : ٧، ٩ : ٣١، ١١ : ١، ١٨ : ٤) !

وعبثاً حاول دعاة العصبية والطائفية إيقاف تيار المحبة الغامر ...

«وفي السبت التالي اجتمعت كل المدينة - أنطاكية بيسيدية - لتسمع كلمة الله ، فلما أرى اليهود الجموع امتلأوا غيْرَة ، وجعلوا يقاومون ما قاله بولس ومناقضين ومُجدّفين . فجاهر بولس وبرنابا وقالا : **كان يجب أن تكلموا أنتم أولاً بكلمة الله ، ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقّين للحياة الأبدية - هوذا نتوجّه إلى الأمم ، لأنّ هكذا أوصانا الرب : قد أقمتك نورا للأمم لتكون خلاصاً إلى أقصى الأرض** . فلما سمع الأمم ذلك كانوا يفرحون ويُمَجّدُون الربّ ، وآمن جميع الذين كانوا معينين للحياة الأبدية ، وانتشرت كلمة الرب في كلّ الكورة » (أعمال ١٣ : ٤٤-٤٩).

ولم يكن المبشّرون بالمسيحية يقصرون جهودهم على مجامع اليهود حيث ينزلون وأينما يرحلون : «فوقف لويس في وسط أريوس باغوس ، وقال : أيها الرجال الأثينيون ، أراكم من كل وجه كأنّكم متديّنون كثيراً ، لأنني بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضاً مذبحاً مكتوباً عليه : لإله مجهول !! فالذي تتّقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به - الإله الذي خلق العالم وكلّ ما فيه هذا ، هو رب السماء والأرض لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي ، ولا يُخدم بأيادي الناس كأنّه محتاج إلى شيء - إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء ، وصنع من دم واحد كلّ أمة من الناس يسكنون كلّ وجه الأرض . وحتّم بالأوقات المعيّنة وبحدود مسكنهم ، لكي يطلبوا الله لعلّهم يتلمّسونه فيجدوه- مع أنّه عن كلّ واحد منا ليس بعيداً » (أعمال ١٧ : ٢٢-٢٧) .

لقد نجحت رسالة المحبة بين التلاميذ ...

ثم أشاعها دعاة المسيحية في مختلف الأقطار وبين شتى الأقوام .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف : ١٤] .

أما بنو إسرائيل فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم عقولهم وأنفسهم ، فانطووا لا يريدون أن يفتحوا نافذة على شيء خارج الهيكل والطقوس ، أو خارج حروف الناموس ..

وغلت صدورهم بالحقد ، وعجزت ألسنتهم عن البرهان ... فلم يكن مُتَنَفَّسٌ لسخائمهم إلا في العدوان !

وكان المسيح نفسه - موقناً من مصيره على أيدي القتلة والسفّاكين ، الذين تعدّدت سوابق جرائمهم مع الأنبياء والمرسلين ....

ولكنه كان يذوب شفقة على أورشليم ، وإن كان أهلها قد تربصوا به الشر : «وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً : إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك؟ ولكن الآن قد أخفى عن عينيك ! فإنّه ستأتي أيام ، ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويُحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك - ونبيّك فيك - ولا يتركون فيك حجراً على حجر لأنّك لم تعرفي زمن افتقادك » (لو ١٩ : ٤١-٤٤) .

وهو موقف يُذَكِّرُ بشبيهه لرسول الإسلام وهو يودّع مكة مهاجراً فيقول : «الله يعلم أنّك أحبّ بلاد الله إلى الله ، وأحبّ بلاد الله إليّ ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت ! »[1] .

أما وقائع التاريخ فتتحدث عن تدمير تيطس لأورشليم سنة ٧٠م ، وتتناول اصطدامات للرومان مع اليهود سابقة ولاحقة ..

يقول الدكتور حتى : «عومل اليهود منذ عهد بومبي كجماعة متميّزة ، فكانوا في عهد الأباطرة مُعْفَوْنَ من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الإمبراطور ،

---

١ - أحمد والترمذي والواقدي - (روى ذلك فنسنك في : مفتاح كنوز السنة).

وكانوا بممارستهم سياسة الانطواء والعزلة يغذُّون شعورهم القومي ، وأدَّى هذا إلى اصطدامات اتّسعت فأصبحت ثورة قومية بين سنتي ٦٦ ، ٧٠م في عهد نيرون ، وبين سنتي ١٣٢ ، ١٣٤ م تحت حكم هادريان. وقد عهد نيرون بمهمة قمع الثورة الأورلى إلى قائده فسباسيان الذي أخضع سنة ٦٧ - ٦٨م منطقة الريف والحصون المنعزلة ودمّر يافا وغيرها من المدن ، وحين كان على وشك محاصرة أورشليم توفّى نيرون وتولّى هو العرش ، فعهد بإنهاء المهمة الحربية إلى ابنة تيطس الذي شدّد الحصار على أورشليم خمسة شهور انتهت في أيلول سنة ٧٠م. ويمكننا الحصول على مصير المحاصرين المفجع من وصف ميثاق متبادل بين اليهود تعهدّوا فيه بإبادة أنفسهم حين كان الجنود الرومان يفتحون المدينة .. لقد هُدمت المدينة ، وأُحرق المعبد المزخرف الذي بناه هيرودوس ، وقُدِّرَ أنّ مليون يهودي قد هلكوا في هذه الحرب ، وأُجبر كثير من الأسرى بأن يقاتل الواحد الآخر أو يقاتلوا ضد الحيوانات المفترسة ، وهكذا أُضيف فصل روماني في تاريخ تفرّق اليهود إلى الفصول الأشورية الكلدانية ... أما بخصوص الديانة اليهودية ، فقد انحطّت بانحطاط أتباعها . ولم **يكن أساسها القومي الضيّق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها** ، وفشلت جميع محاولات العلماء اليهود ابتداء من فيلون الإسكندري (زهاء عام ٤٠م) لتقريبها إلى العقلية اليونانية الرومانية . وتعرّض اليهود لقصة موت أخرى حين رفع راية الثورة اليهودية من سنة ١٣٢م إلى سنة ١٣٥م قائد غامض يسمى سيمون باركوخيا ، وقد سحق هادريان الثورة وحوّل أورشليم إلى مستعمرة رومانية باسم Aelia Capitolina ، وأبدل المعبد القديم للإله Jupiter Capitolinus. ويقدّر ديو عدد القرى التي دمّرت بـ ٩٨٥ قرية ، وعدد القتلى من السكان بـ ٨٥,٠٠٠[1].

---

[1] - حتى : تاريخ سوريا ج٢ -ترجمة حداد ورافق ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

وقد أعدّ المسيح تلاميذه للصبر على الأذى : «ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام ، ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وفي مجامعهم يجلدونكم ! وتُساقون أمام ولاة وملوك من أجلي - شهادة لهم وللأمم . فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلّمون ، لأنّكم تُعْطَوْنَ في تلك الساعة ما تتكلّمون به - لأن لستم أنتم المتكلّمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم . وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده ، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم . وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي ... ولكن الذي يصبر إلى المنتهى يخلص ، ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى ، فإني الحق أقول لكم : لا تكلمون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان ..

ليس التلميذ أفضل من المعلم ، ولا العبد أفضل من سيده .. إن كانوا قد لقبوا ربّ البيت بعلزبول فكم بالحرّى أهل بيته ؟ فلا تخافوهم ، لأن ليس مكتوم لن يستعلن وخفّى لن يعرف . الذي أقوله في الظلمة قولوه في النور ، والذي تسمعونه في الأذن نادوا به على السطوح ! ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لايقدرون أن يقتلوها ، بل خافوا بالحرّي من الذي يقدر أن يُهلك النفس والجسد كليهما في جنهم ... وأما أنتم ، فحتى شعور رءوسكم جميعها محصاة - فلا تخافوا ، فكل من يعترف بي قدّام الناس أعترف أنا أيضاً به قدّام أبي الذي في السموات .. ولكن من ينكرني قدّام الناس أنكره أنا أيضاً قدّام أبي الذي في السموات ...

لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض ! ما جئت لألقي سلاماً ، بل سيفاً !! فإني جئت لأُفَرِّقَ الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنّة ضد حماتها ! وأعداء الإنسان أهل بيته ، من أحبّ أبا أو أما أكثر مني فلايستحقّني ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقّني ... من وجد حياته يُضيِّعُها ومن أضاع حياته من أجلي يجدها! من يقبلكم يقبلني ، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني ! من يقبل نبيّا باسم

نبي فأجر نبي يأخذ ، ومن يقبل بارًّا باسم بار فأجر بار يأخذ » (مت ١٠ : ١٦-٤١ ، مر ٨ : ٣٤ - ٣٥ ، لو ٩ : ٢٣-٢٤) .

إعداد صريح لجهاد مرير ...

إنّ العقائد ليست مسألة خوارق ومعجزات تظفر بإعجاب الحاضرين ، ثم يأتي الانقياد والتسليم ... إنها ليست مسرحيات حواة ، إنها تغيير وجهة واختيار قبلة !

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة : ٤٢] ، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٦] ، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ١٦] . ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] .

إنّ المسيح لا يُلقي سلاماً فحسب ، بل سيفاً أيضاً ... فدعوته سيف قاطع يُفَرِّقُ بين الحق والباطل ! دعوته تكشف أستار المرائين ، وتهتك حجب الأدعياء ، وتذهب برهبة الظالمين من قلوب المظلومين ، فلا تسكنها إلا خشية الواحد القهار!! ومن الطبيعي أن يثور على هذه الدعوة المراءون والأدعياء ، ومن الطبيعي أن يثور عليها الظلمة والطغاة ... ولسوف تشرع السيوف ضد دعاة المحبة الذين لم يحملوا سيفاً ولا عصاً !! لقد كانت كلمات المسيح وتعاليمه وحدها سيوفاً بواتر

انتضُيت لاتقائها سيوف الحديد !!! وقد قدّم يوحنا المعمدان فاتحة التضحيات في الكفاح الدامي كما قدم بشارة الرسالة الجديدة : «وتقدَّم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه ، ثم أتوا وأخبروا يسوع . فلما سمع يسوع ، انصرف من هناك في سفينته إلى موضع خلاء منفرداً ... فسمع الجموع وتبعوه مشاة من المدن » (مت ١٤ : ١٢-١٣ ، مر ٦ : ٣٠-٣١ ، لو ٩ : ١٠-١١) .

وعندما طلبت أم ابني زبدى من المسيح أن يجلس ابناها على جانبيه في ملكوته ، أشار داعية الحب والسلام إلى المصير المحتوم : «فأجاب يسوع وقال : لستما تعلمان ما تطلبان ! أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا ، وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا ؟؟ قال له : نستطيع ! فقال لهما : أما كأسى فتشربانها ، وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان ... وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أُعِدَّ لهم من أبي » (مت ٢٠ : ٢٢-٢٤ ، مر ١٠ : ٣٨-٤٠) !

وترك المسيح لتلاميذه في نبوءاته بشرى الأمل في خلال خطوب المحن : «حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم ، وتكونون مُبْغَضِين من جميع الأمم لأجل اسمى ، وحينئذ يعثر كثيرون ويبغضون بعضهم بعضاً ، ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويُضِلونَ كثيرين ، ولكثرة الإثم تبرد محبّة الكثيرين .. ولكن الذي يصبر إلى المنتهى - فهذا يخلص ، ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ، ثم يأتي المنتهى »! «فمتى ساقوكم ليُسلموكم ، فلا تفتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا ، بل مهما أعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلّموا - لأن لستم أنتم المتكلّمين ، بل الروح القدس! » «لأني أنا أعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها ... ولكن شعرة من رءوسكم لا تهلك ، بصبركم اقتنوا أنفسكم » (مت ٢٤ : ٩-١٥ ، مر ١٣ : ٩-١٣ ، لو ٢١ : ١٢-٢٠) .

ولا ينسى المسيح في آخر عهده بالدنيا أن يثبّت تلاميذه على طريق الحق ، ويجعل من نفسه سلفاً وقدوة : «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني

قبلكم . لو كنتم من العالم ، لكان العالم يحبّ خاصته ، ولكن لأنّكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم ، لذلك يبغضكم العالم ... إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ... قد كلّمتكم بهذا لكيلا تعثروا : سيخرجوكم من المجامع ، بل تأتي ساعة يظنّ كل من يقتلكم أنه يؤدّي خدمة لله! ... وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني ... لكني أقول لكم الحق : إنّه خير لكم أن أنطلق ، لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذاك يُبكِّت العالم على خطيّة ، وعلى برّ ، وعلى دينونة »، «ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب ، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق - فهو يشهد لي ، وتشهدون أنتم أيضاً - لأنّكم معي في الابتداء » (يو ١٥ : ١٨-٢٧ ، ١٦ : ١-١١) .

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ..... مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ..... وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ..... أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ

ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم : ١١ - ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ - ٢٧] .

كان لا بّد أن تصطرع السيوف مع المنطق والإيمان ...

وصبر المسيح متذرّعاً بمثله الإنسانية الرفيعة : «وإذا واحد من الذين مع يسوع مدّ واستلّ سيفه ، وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه . فقال له يسوع : رُدَّ سيفك إلى مكانه ، **لأنّ كل الذين يأخذون السيف ، بالسيف يهلكون** ! أتظنّ أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي ، فيقدم لي أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة ، فكيف تكمل الكتب : أنه هكذا ينبغي أن يكون؟؟! » «فقال يسوع لبطرس : اجعل سيفك في الغمْد ، الكأس التي أعطاني الآب ، أنا أشربها »! «وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمني ! فأجاب يسوع وقال : دعوا إليَّ هذا - ولمس أذنه وأبرأها » (مت ٢٦ : ٥١-٥٤ ، يو ١٨ : ١١ ، لو ٢٢ : ٥٠-٥١) .

في تلك اللحظات التاريخية الحاسمة : «جثا على ركبتيه وصلّى ، قائلاً : يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس ! ولكن لتكن لا إرادتي بل إراداتك - وظهر له ملاك من السماء يقوّيه ، وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشدّ لجاجة ، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض » (لو ٢٢ : ٤١-٤٤) !!

وقُبِضَ على المسيح بخيانة يهوذا ...

«فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه ، أجابه يسوع : أنا كلّمت العالم علانية ! أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً ، وفي الخفاء لم أتكلّم بشيء . لماذا تسألني أنا ؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم ، هوذا يعرفون ماذا قلت أنا ... ».

«ثم دخل بيلاطس أيضاً إلى دار الولاية ، ودعا يسوع وقال له : أنت ملك اليهود؟؟ ... أجاب يسوع : مملكتي ليست من هذا العالم ، لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أُسلّم لليهود » (يو ١٨ : ١٩-٢١ ، ٣٣-٣٦)!!

وجرت محاكمة رسول المحبة أمام محفل اليهود من رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ ، الذين اجتمعوا في بيت قيافا ليصدروا حكماً بالإعدام - سبق لهم أن أصدروه مرات!!

«على أنّ (قيافا) ، وإن كان هو الرئيس رسميًّا ، إلا أنّه كان رئيساً بالاسم . وأما رئيس الأمة الفعلي فكان (حنان) حماه الحبر الداهية ، الذي وإن عزلته السلطات الرومانية منذ زمن بعيد عن رئاسة الكهنوت - إلا أنّه كان يتمتّع بتلك الرئاسة ، وبجميع سلطاته لنفوذه الكبير عند سائر أبناء أمته ، التي أخذ يُهيمن على شئونها السياسية والدينية العليا عن طريق أبنائه الخمسة الذين تولّوا من بعده وعلى التتابع رئاسة الكهنوت ، حتى آلت تلك الرياسة إلى قيافا سهره ... وقد وُجهَتْ الدعوة في هذه المناسبة ولا شك لهؤلاء الأعضاء الذين عُرفوا بمناوأتهم الشديدة وعدائهم السافر ليسوع ، أما الأعضاء الذين كانوا يُخشى معارضتهم - أمثال الرابي جملئيل والرابي نيقو ذيموس - فلم تُوَجَّهْ إليهم الدعوة لحضور الجلسة الليلية ، بل الغالب أنّها لم تُوَجَّهْ إليهم أيضاً الدعوة لحضور الجلسة الصباحية ، لعدم توفّر الشروط القانونية في كلا الجلستين . فمن هذه الشروط مثلاً : أن لا ينظر في أية دعوى ليلاً ، ولا سيما الدعاوى الجسيمة التي قد يترتّب عليها الحكم بالقتل ، وقد جاء في كتاب التلمود : «يصير الحكم لاغياً إذا أصدره السندريم في الليل »، وأيضاً حكم الإعدام لا يصح إذا صدر في اليوم نفسه الذي نُظرت فيه الدعوى . ومن ذلك يتضح أنّ محاكمة يسوع أمام محفل اليهود الأكبر كانت غير قانونية وباطلة من عدة وجوه : أولاً لأنّ أعضاء هذا المحفل قد اجتمعوا في قصر قيافا في حين أنّ المكان الـمُعَـدَّ لاجتماعات المحفل هو (قاعة الحجارة المنجوتة) الملاصقة للهيكل ، وقد اجتمعوا في بيت قيافا كما لا يخفى فراراً من إشاعة الخبر قبل إصدار حكمهم المبرم وظهور من يعرقل مؤامرتهم الخسيسة ، ولا سيما أنهم خشوا مضايقة

السلطات الرومانية الحاكمة التي كانت قد حظرت على السندريم منذ أكثر من أربع سنوات إصدار أي حكم بالإعدام - محتفظة بهذا الحق لنفسها»[1].

وإذا كانت المحاكمة باطلاً شكلاً لهذه الأسباب ، فهي باطلاً موضوعاً لأنّ أساس الاتهام والتجريم هو العجب العجاب !!!

وقد مضى اليهود في مهزلتهم إلى الغاية ، فقال رئيس الكهنة : «لقد جدَّف ، فما حاجتنا بعد إلى شهود ؟ ها أنكم قد سمعتم تجديفه ، فماذا ترون ؟؟ أجابوا : إنّه يستوجب الموت!! ».

وأصدر اليهود الحكم ، وألقوا على الرومان عبء التنفيذ !!!

وكانوا - كشأنهم - متحرّزين مدقّقين في الطقوس والمراسم : «جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية - وكان صبح ، ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجسّوا فيأكلون الفصح !!! ... فخرج بيلاطس إليهم وقال : أيّة شكاية تقدّمون على هذا الإنسان ؟ أجابوا وقالوا له : لو لم يكن فاعل شرّ لما كنا سلمّناه إليك ! فقال لهم بيلاطس : خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم ... فقال له اليهود. لا يجوز لنا أن نقتل أحداً !!!؟؟؟ » (يو ١٨ : ٢٨-٣١).

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران : ٥٤ - ٥٨].

---

١ - لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .